قصة قصيرة

القنص

فوزي دسوقي خليفة

وثب وثبة عالية حالت بينه وبين الطلقة التي طاشت في الهواء، محدثة دوياً هائلاً وكادت أن تنفذ إلى سويداء قلبه. قفز مرعوباً من البندقية التي ما كفّت عن مطاردته منذ خرج بحثاً عن طعام يسدّ به جوعه. تراءى له الجبل على مرمى البصر فأخذ يعدو نحوه غير مصدّق بنجاته. إنه يعرف أن هذه الطلقات لن تكفّ عن ملاحقته. وها هي الطلقة العاشرة يقذفه بها، ولولا أن أجله لم يحن بعد، لكان الآن في قبضة الرجل ثم تنتهي حياته التي كانت سعيدة وسط هذه البرية المترامية قبل وصول هذا الرجل وطلقاته المجنونة. توقّف عن الركض إذ وصل إلى الجبل وأخذت عيناه تبحثان عن مخبأ لا يكتشفه الرجل. تنفس الصعداء ونزّ جسده عرقاً غزيراً ورمق مطارده وهو يقترب من الجبل.. قال في نفسه «ينبغي أن لا أقع في يد هذا الرجل.. هذه فجوات ومغاور في الجبل وعليّ أن أناوره وأروغ من طلقاته.. إنني جائع.. خرجت لتناول الإفطار. لكن طلقات الرجل كانت في الانتظار.. سوف أصمد رغم الجوع والعطش.. ورغم الشمس الضاربة بحدة ووهج، ورغم وعورة الجبل وملاحقة الرجل..»

جفّف الرجل عرقه، وحين وصل إلى سفح الجبل جلس يتفقّد سلاحه وذخيرته. إنه منذ الصباح لم يسترح. وهذا الصيد البرّيّ الضخم الذي لم ير له مثيلاً في حجمه وشكله قد دوّخه.. يا له من أرنب ماكر مشاكس يقظ! ويا لفرائه من فراء أبيض كالثلج، ناعم كالحرير! وبالطبع سيكون لحمه شهيّاً طرياً ومرقه هنيئاً مريئاً.. وأخرج قربته وأخذ جرعة ماء وكسرة خبز. لم يحدث أن كان القنص صعباً مرهقاً مثل قنص اليوم. لم يحدث أن كان الصيد يهرب منه ويفرّ من بين يديه وينجو من طلقاته قبل اليوم. لكن هذا الأرنب يقفز كالخيالات ويحاور ويناور كالأشباح. وإذ يتذكر الخيالات والأشباح يحدث لبدنه قشعريرة ولرجيف قلبه لهاث. لكنه سرعان ما يستعيد ثقته وينظر إلى سطوع الشمس ويدرك أن بينه وبين الليل والخوف مسافات طويلة وأزماناً بعيدة. إنه لا يريد أن تتداعى الأفكار حتى لا تنقله إلى ما حدث له في ليلة ليلاء ذات حوادث شنعاء في برية ممتدة ومدى لامتناهٍ.. لقد عاد بعد تلك الليلة فسأله الذين يعرفونه حين خرج عليهم في الصباح عن ابيضاض شعر رأسه وزوال الدماء من وجهه. فقصّ عليهم ما رآه من رعب في ليل الصحراء ففغروا الأفواه.

★ ★ ★

وهو مختبئ بعينيه الحمراوين الماكرتين خلف تل قريب حدق في وجه الرجل والبندقية التي في يده.. كان قد شاهد ما كان يقع. ورأى الأرنب الأبيض السمين يمرق هارباً ويتّجه نحو الجبل. والآن ـ من وكره الآمن وبعينين تلسكوبيتين ـ استطاع الثعلب الكهل أن يرى الرجل ويشم رائحة الأرنب ويدرس خطته في عمق وروية للمناورة التي يتحتم أن يقوم بها من أجل أن يسبق في الوصول إلى ذاك الشهيّ المحتمي بنتوءات الجبل.

بوثبات طويلة.. عالية.. ظل يصعد الجبل.. والصعود مرهف.. لكنه محتم. نظر اسفل منه فشاهد البندقية تصعد خلفه.. والرجل يصعد في دراية وحنكة وبخفّة قرد فتي عفي.. لن يدخل إلى فجوة من تلك الفجوات.. لن ينحشر

بين الصخور.. إن كل شبر من هذا الجبل معروف لدى الرجل.. هناك خطر أكيد إذا دخل إلى مكمن يصعب الخروج منه. عليه أن ينزل قليلاً ثم يدور حول الجبل حتى يصبح الرجل أمامه وهو خلفه.. وهكذا.. سوف يناور حتى يرهقه ويجعل اليأس ينسرب إلى داخله.

انطلق الثعلب انطلاقته.. محاولاً أن يكون خلف الرجل والصيد المرتقب. وظل يعدو حيناً ويزحف حيناً.. ويكمن مستكناً للحظات ثم يعاود تسلّله. أمسى الصيد في ذرى الجبل والرجل يتسلّق نحوه.. والثعلب في أعقابهما.. قال الرجل في نفسه: «لن أدعه يفلت. إنني صياد مخضرم ولن تذهب خبراتي السابقة سدى.. لن أعود بدونه..». وقال الثعلب «عليّ أن أقوم بالتفافة حول الجبل وآتيه من ورائه حين يكون منشغلاً بمراقبة الرجل.» وقال الأرنب «سوف أهبط الجبل.. واتسلل هارباً.. إلى تلك التلال الرملية العالية.»

في خفة واندفاع مشوب بتحدٍ، تسارع تسلّق الرجل.. كان الجبل متسامقاً، وعراً، والصخور ضخمة ناتئة.. وكانت البندقية في يده.. والخرطوش في حزام حول وسطه. وهو في تسلّقه المضني راودته فكرة النكوص على عقبيه والتخلّي عن قنص ذلك الشقيّ.. لكن القنص لم يعد قنصاً.. لقد أمسى تحدّياً واثبات جدارة.. ومسألة كرامة توشك أن تهدر.. ولقد ضحى بالكثير من الوقت والطلقات من أجله. فكيف يفكر الآن في العودة؟ شرع الثعلب ينفّذ ما انتوى.. وأخذ يتسلق من الجهة المقابلة.. وعندما استدار الصيد التعس متّخذاً طريقاً للهرب، لمح الثعلب في صعوده.. فتوقّف ليتدبر هذا الضرب الطارئ من الخطر.. وانفلت إلى الجهة الجنوبية من الجبل..

والرجل يقترب من قمة الجبل صرخ طائر أسود كبير كان راقداً على فراخه صرخة مدوية وانطلق.. وقف للحظات يسترد انفاسه.. ثم وهو يهم بالصعود سمع هسيساً تحت قدميه.. وأدرك أن ثمة خطراً تحته.. كانت حية رقطاء مهولة تكمن بين الصخور التي يقف فوقها.. وتلاقت نظراته بنظراتها.. وفكر أن يصوب طلقاته إليها إذا حاولت الهجوم عليه.. لكنها ظلت ساكنة.. تنظر إليه وتصدر فحيحاً.. وقف متحجراً.. وعندما أراد أن يواصل الصعود انفلتت البندقية من يده وسقطت متدحرجة أسفل الجبل.. وظل يسمع لصوت اصطدامها بالصخر إلى أن همدت أخيراً في مكان لا يعلمه.. ثم بدأ يهبط بتؤدة وعيناه مستقرّتان على الحية..

كان لصوت ارتطام البندقية بالصخر صدى عالٍ تناهى إلى آذان أربع.. قريبة. فتوقف الصيد ثانية عن جريه.. وتوقف الثعلب متسائلاً..

عندما وصل الرجل إلى سفح الجبل أخذ يبحث عن بندقيته.. في اللحظة ذاتها كان الثعلب يعتلي صخرة أعلى الجبل وينظر إلى أسفل منه نحو الرجل وهو ينقب عن شيء بين الصخور.. في اللحظة نفسها وصل الصيد في ركضه أسفل الجبل وأخذ يعدو نحو التلال البعيدة.. لكنه وهو يركض لا يلوي على شيء وقع بصره على الرجل وهو يدور حول نفسه.. ولم تكن البندقية معه.. خفّف الصيد من ركضه ووقف قليلاً غير مصدق.. وقع نظر الرجل عليه.. فتوقف.. وأخذ الاثنان يتبادلان النظر..

تمهل الأرنب في مشيه.. ثم التقط عشبة برية وأكلها على مهل.. ثم حجل قليلاً وأدار ظهره للرجل..

من أعلى الجبل راقب الثعلب ما يجري تحته.. لكنه قال وهو يتابع الصيد المتجه ببطء شديد نحو التلال: «لقد أفلتَ من الرجل.. لكنك لن تفلت مني.. لا سيما وقد صارت الساحة خالية...»(★)

(●) من مجموعة قصصيّة بعنوان «الزوايا» تصدر قريباً عن «دار الآداب» بيروت.